

الكبر

حقيقته وآثاره وعلاجه
في ضوء القرآن الكريم

إعداد

د. عبد العزيز بن عبد الله بن عبد العزيز الخضير

الأستاذ المساعد بقسم القرآن وعلومه

كلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

تمهيد

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً. **وبعد:**

فإن القرآن الكريم كتاب هداية وتربية، وكتاب تشريع وخلق، أخرج الله تعالى به الناس من الظلمات إلى النور، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الاحتكام إلى الطواغيت إلى الاحتكام إلى رب الأرض والسموات. اهتم بالنفس الإنسانية أيما اهتمام، وعُني بجميع جوانبها من جسم وعقل وروح، فأعطى كل جانب ما يستحقه؛ فكان التوازن والاعتدال. ومن أهم ما عني به القرآن الجانب الأخلاقي؛ لخطر أثره في الحياة، إذ لا يتصور أن تقوم العلاقة بين أفراد الأسرة الواحدة وكل منهم لا يثق بالآخر، ولا يطمئن إليه، ولا تربطه به مودة ولا عاطفة، بل ولا رحمة. وقل مثل ذلك عن المجتمع الذي تنحل أخلاقه، وتنحط قيمه، فإن العيش

فيه يصبح أمراً ثقيلاً، فلا تراحم ولا مودة، ولا قناعة ولا رضى، وإنما قسوة وغلظة، ونهم وجشع، وشيوع للمنكر وتوارٍ للمعروف، وشح لدى الأغنياء، وسوء خلق لدى الفقراء، وفساد بين العلماء، وتناول للجهلاء، واختلال في القيم والموازن.

من أجل ذلك جاء القرآن الكريم داعياً النفس الإنسانية إلى السلوك القويم والخلق الحميد، فلا تكاد تخلو سورة من سوره من الدعوة إلى الفضائل والحث عليها، أو النهي عن الرذائل والتحذير منها، مقرونة أحياناً بالترغيب في الفضيلة والوعد عليها بحسن الجزاء في الآخرة، أو الترهيب من الرذيلة والوعيد عليها بالعقاب وسوء المصير.

ومن أهم ما حذر منه القرآن الكريم ودعا الناس إلى اجتنابه: الكبر؛ لما يترتب عليه من الآثار السلبية على الفرد والجماعة. فهو للفرد هلاك في الدنيا والآخرة بالنظر إلى ما يحدثه في نفسه من التعالي على الحق وعدم قبوله، ومن ازدراء الناس واحتقارهم. وهو للجماعة فساد لما يجب أن يسود بينها من الروابط والصلات، إذ يولد بين الناس الشعور بالكراهية والنفور والكلفة والانطوائية والانعزال، وهي أمور تنغص الحياة وتذهب ما ينبغي أن يسودها من روح التعاون والمحبة والألفة والعيش الكريم.

ولئن كان البحث في موضوع الكبر والتحذير من آثاره السلبية مهماً في كل وقت، فهو في وقتنا الراهن أعظم أهمية؛ بالنظر إلى ما يسود عالمنا اليوم من طغيان وتجبر وعدوان على الأنفس والأعراض والأموال، مرده إلى الإغراق في تعظيم النفس واحتقار الآخرين وازدراء ما هم عليه من اعتقاد وقيم ومنهج حياة. وهو أمر يدعونا إلى الرجوع إلى كتاب ربنا جل وعلا، متفيئين بظلاله، مستلهمين العبر والدروس منه، ناظرين في أسباب ما نراه وفي أساليب علاجه.

ولدراسة هذا الموضوع لا بد من النظر في حقيقة الكبر وأقسامه وأسبابه ومظاهره وآثاره الدنيوية والأخروية، ثم في وجوه علاجه كما ذكرها القرآن الكريم. وقد أفردت لكل عنصر من هذه العناصر مبحثاً مستقلاً، كما يلي:



المبحث الأول:

حقيقة الكبر وأقسامه

□ أولاً: حقيقة الكبر:

الكبر هو الحالة التي يكون عليها الإنسان حين يعجب بنفسه فيراها أكبر من غيره. والكبر والتكبر والاستكبار ألفاظ متقاربة. وهو باطن وظاهر، فالباطن خُلِقَ في النفس، والظاهر أعمال تصدر عن الجوارح. واسم الكبر أحق بالخلق الباطن؛ إذ هو الأصل، أما ما يصدر عن الجوارح فهو ثمرات لذلك الخلق.

والتكبر على وجهين، أحدهما: أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره، وهو إلى ذلك كامل في ذاته، كامل في وجوده. وهذا لا يوصف به إلا الله تعالى. والآخر: أن يكون متكلفاً لذلك متشعباً مظهراً من نفسه ما ليس له، وهذا ما يكون لعامة الناس. فمن الأول: قوله تعالى في وصف ذاته: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]. ومن الثاني: قوله تعالى: ﴿فَيَسْأَلْ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر: ٧٦].

واستكبر في القرآن على معنيين، أحدهما: بمعنى الكبر كقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، يعني تكبر عن السجود لآدم عليه السلام. والآخر: استكبروا بمعنى الكبراء والقادة، كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ [إبراهيم: ٢١]، يعني: الكبراء.

ومن الألفاظ المرتبطة بالكبر: الكبرياء والعظمة، وهي متقاربة في المعاني. ومنها: العُجب، وهو استعظام النعم من العلم والمال والجاه وغيرها، والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم جل وعلا. ويفترق عن الكبر في كونه لا يستدعي غير المعجب، بل لو لم يكن الإنسان إلا وحده لتصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً إلا ومعه غيره، وهو يرى نفسه فوق ذلك الغير في صفات الكمال^(١).

ولما كان الكبر لا يليق إلا بجلال الله فقد جاء ذمه في حق المخلوقين في مواضع كثيرة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فمن ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. وغير ذلك كثير.

وأما السنة فمنها قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢)، وقوله ﷺ: «ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر»^(٣)، وقوله ﷺ: «يقول الله تعالى: العزة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبت»^(٤).

والأحاديث والآثار الواردة في ذمه كثيرة معلومة^(٥).

وإذا كان الكبر مذموماً فإن التواضع - وهو ضده - محمود مطلوب،

(١) انظر في التعريف: المفردات في غريب القرآن: ٤٢١، ٤٢٢، لسان العرب، مادة (كبر): ١٢/١٢، بصائر ذوي التمييز ٤/ ٧٩، ٣٢٥، إصلاح الوجوه والنظائر: ٣٩٨، ٣٩٩، إحياء علوم الدين ٣/ ٣٣٤، ٣٦٠.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانها، ٨٩/٢.

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح، باب الكبر، ٤٠٨/١٠. مسلم في الصحيح، صفة الجنة، ٢١٩٠/٤.

(٤) أخرجه مسلم في الصحيح في البر والصلة ٤/ ٢٠٢٣.

(٥) انظر: فتح الباري ١٠/ ٤٠٩، مكارم الأخلاق للطبرسي: ٤٢، تفسير ابن كثير ٣/ ٤٦٦.



جاءت بذلك الأدلة الشرعية والآثار المروية. والتواضع هو خفض الجناح ولين الجانب، مع خضوع للحق وانقياد له وقبوله ممن قاله^(١). ولم ترد كلمة التواضع بلفظها في القرآن، وإنما جاء معناها بالفاظ أخرى، كقوله تعالى في وصف عباده المؤمنين: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فإن المعنى يمشون على الأرض بسكينة ووقار متواضعين، غير أشربين ولا مرحين ولا متكبرين^(٢). وكذا قوله تعالى: ﴿يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوِيٍّ يُضَيِّقُ لَهُمُ وَيُخَيِّبُهُمْ أَدْخِلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفَ عَلَى الْكَافِرِينَ يَجْهَدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤]، فإن المراد بالذل في هذه الآية ذل الرحمة والرفق والشفقة واللين، لا ذل الهوان، ولهذا عُدي بأداة «على» تضميناً لهذه المعاني^(٣).

وكما دلت الآيات القرآنية على فضل التواضع، فقد جاءت سيرة النبي ﷺ كذلك ممثلة في أقواله وأفعاله، فثبت عنه أنه كان يمر على الصبيان فيسلم عليهم^(٤)، وكانت الأمة من إماء المدينة تأخذ بيده ﷺ فتنتقل به حيث شاءت^(٥)، وكان يخفض نعله ويرقع ثوبه، ويحلب الشاة لأهله، ويعلف البعير، ويأكل مع الخادم، ويجالس المساكين، ويبدأ من لقيه بالسلام، ويجيب الدعوة ولو إلى شيء يسير. وهذا كله من دلالات تواضعه وبراءته من جميع أنواع الكبر ﷺ^(٦).

ومما يجب إدراكه أن هناك فرقاً بين التواضع والقذارة في البدن والثياب والسكن والمركب... ونحو ذلك، فهذا أمر منهى عنه، ومأمور بضده،

(١) انظر: مدارج السالكين ٣١٤/٢، نزهة الأعين الناظر: ٦١١.

(٢)(٣) انظر: مدارج السالكين ٣١٠/٢، ٣١٣.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب الاستئذان، باب التسليم على الصبيان، ٦٨/٨.

(٥) انظر: فتح الباري ٤٠٨/١٠، ٤٠٩.

(٦) انظر: مدارج السالكين ٣١٣/٢. إحياء علوم الدين ٣٣٠/٣، مكارم الأخلاق للطبراني:

٤٠، حديث رمضان: ٢٨.

فإن الله تعالى يقول: ﴿يَبْنَىْ ءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. كما يجب أن يعلم أيضاً أن للتواضع حداً لا ينبغي تجاوزه؛ لأن ذلك يؤدي إلى الذل والضعفة المذمومة التي لا تليق بمكانة المسلم وقدره^(١).

وقبل الفراغ من الحديث عن حقيقة الكبر يحسن بيان الفرق بينه وبين العزة، لأنها لا تعنيه بكل حال، بل هي نوعان: عزة محمودة، وهي عزة الله تعالى ورسوله والمؤمنين، وهي العزة الحقيقية الباقية. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، فهي تشريف من الله تعالى لرسوله وللمؤمنين؛ فقد ضمهم إليه، وأضفى عليهم من عزته وجعل العزة في قلوبهم ملازمة للإيمان، فهي عزة مستمدة من عزته تعالى، لا تطلب إلا منه، ولا توجد إلا عنده. وهي ليست تكبراً على الناس وظلماً لهم واعتداءً على حرمتهم وهضمًا لحقوقهم، وإنما هي الحفاظ على الكرامة، والصيانة لما يجب أن يصابان، والوقوف بحزم في وجه كل معتد جائر. وأما النوع الثاني: فعزة مذمومة تعتمد على الحمية، وترتكز على الظلم والبغي والعدوان. ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ وَشِقَاقِ﴾ [ص: ٢]، وكذا قوله تعالى في وصف بعض المفسدين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]. وهذا النوع من العزة لا يخرج عن الكبر ولا يتعدى حقيقته^(٢).

□ ثانياً: أقسام الكبر.

الكبر باعتبار المتكبر عليه أقسام ثلاثة: تكبر على الله تعالى، وتكبر على رسوله ﷺ، وتكبر على سائر الخلق. وبيان ذلك فيما يلي:

(١) انظر: موسوعة أخلاق القرآن ٧٥/١، تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم: ٢٧٠، ٢٧١، من الآداب والأخلاق الإسلامية: ٢٤٠، قبسات قرآنية: ٧١ - ٢٠٦.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز ٦١/٤، موسوعة أخلاق القرآن ٢٠/١، ٢١.



١ - التكبر على الله تعالى:

التكبر على الله تعالى هو أعظم أنواع الكبر، وأشدّها خطراً، بل هو أعظم من الشرك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ اللهُ -: (الكبر شر من الشرك؛ فإن المتكبر يتكبر على عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله وغيره)^(١). والتكبر على الله لا يكون إلا عن طغيان وجهل محض، كالذي حصل من فرعون وغيره ممن ادعوا الربوبية؛ استكافاً أن يكونوا عبيداً لله تعالى. وكالذي حصل من الذي حاج إبراهيم في ربه، فإنه من المتكبرين على الله مع كونه لا ينكر وجود الله أصلاً، إنما ينكر وحدانيته في الألوهية والربوبية وتصريف الأمور. ومن هنا نفهم أن التكبر على الله تعالى لا يقتصر على مجرد إنكار ألوهيته، بل يشمل كل ما من شأنه أن يقدر في ربوبيته أو أسمائه وصفاته أو عدالة أحكامه وإحاطتها بكل مصالح الخلق وشمولها لكل زمان ومكان. فيدخل في هذا النوع من الكبر أهل الكلام الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا إذا تعارض العقل والنقل قدمنا العقل وعزلنا النقل إما عزل تفويض وإما عزل تأويل. كما يدخل فيه المتكبرون من المنتسبين للفقهاء الذين يقولون إذا تعارض القياس والرأي والنصوص قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه. وكذا المتكبرون المنحرفون من الولاية والأمراء الجائرين، الذين إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة^(٢). ويدخل فيه أيضاً من ينتسبون إلى المدرسة العقلانية في عصرنا الحاضر، فيلوون أعناق النصوص ويصرفونها عن حقيقتها لكي تلائم ما يرونه من أعراف العصر ومستلزمات التقدم والتطور الفكري. فهم متكبرون لأنهم رأوا في تنظيمات البشر من الخير ما لم يروه في شرع الله، والله تعالى يقول: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

(١) مدارج السالكين ٣١٦/٢.

(٢) المرجع السابق ٣١٨/٢.

ومما يدخل في التكبر على الله تعالى الاعتراض على حكمه وتديبره، كما فعل إبليس في امتناعه عن السجود لآدم وقد أمر بذلك؛ لأن أمر الله تعالى لملائكته بالسجود لآدم حق، ومن تكبر عن الانقياد للحق فإنما تكبره على الله تعالى؛ لأن الله هو الحق.

ويلحق بهذا الاعتراض على الله تعالى في اختيار الأنبياء والرسل، والظن بأن غيرهم خير منهم، وأكثر كفاءة، وأملك لوسائل إحقاق الحق ونشر الدعوة، كقول قريش معترضين على اختيار النبي ﷺ: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]. وكذا الاعتراض على تقسيم الله تعالى للأرزاق بين عباده كالذي سمعناه بالأمس القريب ونسمعه اليوم عن خطأ الرب - تعالى الله عما يقولون - في توزيع الثروات النفطية وجعل أكثرها في العالم غير المتقدم، ووجوب إصلاح ذلك الخطأ.

٢ - التكبر على رسول الله ﷺ:

ويكون ذلك بترفع النفس وتعزها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس واتباعه وإطاعة أوامره. وقد وقع ذلك لكثير من الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿أَتُؤْمِنُ بِإِسْرَافِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [المؤمنون: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَكُوتُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٢١]، وهذا بيان لتعنت الكفار، وعنادهم حيث طالبوا أن تنزل عليهم الملائكة بالرسالة؛ تكبراً منهم على رسول الله ﷺ، وعلى تلقي الدين منه^(١).

ويكون التكبر على رسول الله ﷺ أيضاً بعدم اتباع أمره واجتناب نهيه، وبترك سنته القولية أو الفعلية بسبب التقليد والتعصب للمتبعين والأئمة والهوى، أو بسبب الاعتداد بالرأي والعقل، وقد قال الشافعي - رحمه الله -:

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٣/٣١٣.



(أجمع المسلمون على أن من استبانته له سنة رسول الله ﷺ، لم يحل له أن يدعها لقول أحد)^(١).

وهذا يعني: أن التكبر عليه ﷺ كما يقع من الكافر استصغاراً له واحتقاراً أن يبلغ درجة الرسالة، يقع أيضاً ممن يدعي الإيمان إذا تعمد عن علم العدول عن سنته ﷺ رغبة عنها إلى غيرها.

٣ - التكبر على الخلق:

وذلك بأن يرى الإنسان نفسه عظيماً، فيحتقر من عداه من الناس، وتأبى نفسه الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم ويأنف من مساواتهم. وهذا القسم وإن كان دون القسمين السابقين إلا أنه عظيم من وجهين:

الأول: أن الكبر والعظمة لا تليق إلا بالله جل وعلا القادر على كل شيء، أما العبد المملوك العاجز المحدود القدرة فإنه لا يليق به الكبر، فإن فعل ذلك فقد نازع الله تعالى فيما هو خاص به دون سواه. ولهذا قال تعالى في الحديث القدسي: «العزة إزاري والكبرياء ردائي فمن نازعني عذبتة».

والثاني: أنه يفضي إلى مخالفة الله تعالى في أوامره؛ لأن المتكبر إذا سمع الحق من أحد من الناس استنكف عن قبوله، وبذل جهده في رده. وهذا يلاحظ في بعض المناظرين في مسائل الدين، حيث تكون مناظرتهم لمجرد الغلبة والإفحام، فيعمدون إلى كل وسيلة يقدرون عليها للتلبس وإظهار الحجة، دون أن يكون قصدهم إظهار الحق وبيانه. وهذا من أخلاق الكافرين، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [نمل: ٢٦] ^(٢).

(١) مدارج السالكين ٣١٩/٢.

(٢) إحياء علوم الدين ٣٣٧/٣.

ومن هذا الباب تكبر أقوام الأنبياء عليهم، وأنفتهم من مجالسة ومخالطة المستضعفين الذين سبقوهم إلى إجابة الدعوة والإيمان بها. قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرْنِكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرْنِكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّىَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. فهؤلاء اعترضوا على رسولهم ومن اتبعه بأنهم لم يفضلوهم بشيء نتيجة إيمانهم، كما أن غالبية الأتباع من الأراذل كالباعة والحاكة وأشباههم، دون الأشراف والرؤساء. وهذا جهل منهم وقلة علم وعقل؛ فإنه ليس بعار على الحق رذالة أتباعه، فإن الحق في نفسه صحيح سواء اتبعه الأشراف أو الأراذل. بل الحق الذي لا شك فيه أن أتباع الحق هم الأشراف ولو كانوا فقراء، والذين يأبونهم هم الأراذل ولو كانوا أغنياء^(١).

وقد حصل مثل هذا مع نبينا محمد ﷺ، فقد امتنع أشراف مكة وكبرائها عن الدخول في الدين والجلوس مع النبي ﷺ بسبب مجالسته للمستضعفين من المؤمنين كعمار وبلال وصهيب وغيرهم، وأنفوا أن يجلسوا معهم في مجلس واحد يستنون فيه معهم، وطلبوا من النبي ﷺ أن يطرد هؤلاء، أو يفرد لهم يوماً خاصاً بهم؛ فنزل القرآن منكرًا لقولهم هذا، وأمرًا للنبي ﷺ ألا يستجيب لهم، وأن يصبر نفسه مع المؤمنين. قال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَكَفَوْا عَنْ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨] ^(٢).

ومن أبرز مظاهر التكبر على الخلق أن يحتقر الإنسان غيره ويزدرجه

(١) انظر: تفسير ابن كثير ٤٤٢/٢.

(٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٢٢٤ وما بعدها.



ويبعده عن نفسه، ويرتفع عن مجالسته ومؤاكلته، ويرى من حقه أن يقوم غيره مائلاً بين يديه خادماً له، بل قد يشتد كبره فيستنكف عن استخدامه، ويراه غير أهل للقيام بين يديه.

ومن المظاهر أيضاً أن يتقدم على غيره في مضايق الطرق، ويرتفع عليه في المحافل، وينتظره أن يبدأه بالسلام، ويستبعد تقصيره في قضاء حوائجه وتلبية طلباته. وإن حاجَّ أو ناظر أنف أن يُرد عليه، وإن وعظ استنكف من القبول، وإن وعظ عتف في النصيح، وإن رد عليه شيء من قوله غضب، وإن علّم لم يرفق بالمتعلمين واستذلهم وانتهرهم وامتن عليهم واستخدمهم، وإن نظر إلى العامة كان كمن ينظر إلى البهائم استجهالاً لهم واحتقاراً^(١).



(١) انظر: إحياء علوم الدين ٣/٣٣٥، موسوعة أخلاق القرآن ١/٧١.

المبحث الثاني:

أسباب الكبر ودواعيه

الكبر حالة تتعلق بالنفس الإنسانية، ومرض من أمراض القلوب؛ ولهذا لا بد له من أسباب ودواع تفضي إلى وجوده وتسهم في ظهوره. ذلك أن النفس بطبيعتها مخلوقة على الفطرة السليمة، ولو أنها ربيت كما أراد الله تعالى لكانت مع الذين أنعم الله عليهم، تتخلق بأخلاقهم وتتصف بصفاتهم. لكن هذه النفس قد تتعرض لظروف معينة وأسباب خاصة تصرفها عن هذه الفطرة السليمة، وتزرع فيها حب التعالي والتكبر والتعظيم. وفيما يلي عرض لأهم هذه الأسباب:

□ أولاً: البعد عن منهج الله تعالى:

المقصود بمنهج الله تعالى ما ارتضاه سبحانه لعباده الصالحين في هذه الحياة الدنيا من الإيمان به وتوحيده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والثناء عليه بما هو أهله، وتنزيهه عما لا يليق به، والرجاء بفضله ورحمته، والخوف من غضبه وعذابه، وما يستلزمه ذلك من العمل الصالح الموصل إلى رضوانه خالصاً صواباً على سنة رسوله ﷺ. ويتبع هذا التصور الصحيح للكون والإنسان والحياة، ومعرفة الغاية التي من أجلها خلق الإنسان واستخلف في هذه الأرض، ألا وهي عبادة الله جل وعلا وحده لا شريك له، والقيام بمهام خلافة الأرض وفق المنهج الذي وضعه المستخلف سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) [الذاريات: ٥٦]، ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود: ٦١].



والناظر في أحوال المتكبرين يجد أنهم قد انحرفوا عن هذا المنهج، فهم إما لا يؤمنون بالله أصلاً كفرعون وهامان، أو يؤمنون بوجوده في الظاهر من غير أن ينعكس هذا الإيمان على معتقدتهم وسلوكهم كمشركي مكة، الذين اعترفوا بربوبية الله وأنكروا ألوهيته، أو يؤمنون بربوبية الله وألوهيته بالسنتهم دون أن يستشعروا هذا الإيمان بقلوبهم، ويترجموه إلى واقع عملي في سلوكهم وتعاملهم مع الناس كسائر المتكبرين من المسلمين.

ولو أن هؤلاء المتكبرين استحضروا عظمة الله تعالى وتعالیه على خلقه، وتفرد بصفات الكمال؛ لما كان لهم أن ينازعوه سبحانه فيما هو له. ولو أنهم تفكروا في أنفسهم وفي أصل خلقهم ومآلهم لاستحيوا من سلوكهم وسوء عملهم. فإن الإنسان خلق من طين، ومن ماء مهين، ومن نطفة مذرة، ثم يعود بعد ذلك جيفة قذرة منتنة ينفر الناس من مظهرها ورائحتها، وهو في مرحلة الحياة يحمل العذرة في جوفه، فهل يسوغ له بعد ذلك أن يتكبر؟!^(١).

إن البعد عن منهج الله تعالى هو السبب الرئيس للكبر، وعنه تنفر الأسباب الأخرى، فاتباع القدوة السيئة، والاعتزاز بالملك والسلطة والجاه وكثرة الجنود والأموال، والاعتداد بالعنصرية والقبلية وغير ذلك؛ ما هو في الحقيقة إلا بعد عن منهج الله وخروج عليه. وإنما يكون تفصيل القول في هذه الأسباب من باب ذكر الخاص بعد العام للاعتناء به وبيانه والتحذير منه.

□ ثانياً: القدوة السيئة:

ينشأ الإنسان عادة محباً لما ألفه من سلوك آبائه وأجداده وتفكيرهم وعاداتهم وتقاليدهم وكل ما يتعلق بحياتهم، ويرى أنه الخير المحض، والحق الذي لا يجوز تعديده. ومن ثم فهو يتعالى ويتكبر على كل فكر أو رأي أو سلوك يخالف ما ألفه وتربى عليه، بصرف النظر عن الحق والباطل.

(١) انظر: تفسير سورة الإسراء: ١٥١.

إن اقتداء الكفار بأبائهم وأجدادهم فيما يتعلق بالموروث العقدي هو السبب الرئيس في إعراضهم عن الحق الذي جاءت به الرسل وتكبرهم عليه. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال عن قوم إبراهيم عليه السلام حين سألهم: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلَ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [٥٢] قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَزِيدَ ﴿٥٣﴾ [الأنبياء: ٥٢، ٥٣]، فلم يكن لهم من حجة في عبادة غير الله إلا أنهم وجدوا آباءهم يفعلون ذلك، فاتبعوهم واقتدوا بهم. وهذا يدل على التحجر العقلي والنفسي الذي تعاني منه القلوب الميتة في مقابل حرية الإيمان وانطلاقه للنظر والتدبر، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية.

والاعتداد بالآباء والأجداد وما كانوا عليه يمنع صاحبه من الدخول تحت لواء الحق حتى لو اقتنع به، فهذا أبو طالب عم رسول الله ﷺ يقتنع بصحة دين الإسلام، وأنه من عند الله، ويصفه بأنه من خير أديان البرية. ومع هذا يمنعه اتباعه لأبيه واقتداؤه به من الدخول في الإسلام، ومات وهو يقول: هو على دين عبد المطلب. وأنزل الله تعالى فيه، وفي حرص النبي ﷺ على استنقاذه قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [٥٦] [القصص: ٥٦] (١). قال ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبي وقتادة: إنها نزلت في أبي طالب حين عرض عليه رسول الله ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، فأبى عليه ذلك، وقال: أي ابن أخي ملة الأشياخ (٢).

وقد منع هذا الأمر - أعني القدوة السيئة - كثيراً من فضلاء الصحابة وعقلائهم وأصحاب الرأي فيهم من الدخول في الإسلام عند ظهوره؛

(١) انظر القصة في صحيح مسلم، كتاب الإيمان ٥٤/١.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٣٩٥/٣.



احتراماً لموقف آبائهم، وتقديراً لهم، فعطلوا عقولهم وتبعوا آباءهم على كفرهم. فلما هلك أولئك الآباء على الكفر أعملوا عقولهم وتدبروا في الأمر فإذا هو حق، فدخلوا في دين الله، وندموا على تأخرهم وتفريطهم^(١).

□ ثالثاً: الخوف على السلطان وعلو المكانة:

قد يكون سبب الكبر راجعاً إلى خوف المتكبر على ما في يده من ملك وسلطة ومكانة رفيعة، وخشيته من زوال هذه المزايا والنعم إن هو انقاد للحق وتواضع للخلق. فهذا فرعون تكبر على الناس وعلا في الأرض، وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم، يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم، إهانة لهم واحتقاراً، وخوفاً من أن يوجد منهم من تَخَوَّفَ هو وأهل مملكته منه؛ أن يوجد من يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه. فلما خاب ظنه وفسد تدبيره بإرسال موسى عليه السلام؛ تكبر عليه وعلى ما معه من الحق والهدى، مع يقينه بأنه صادق، وبأنه رسول من عند الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ ءَايَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ (١٣) وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَفْتَنَاهَا أَنْفُسَهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ [النمل: ١٣، ١٤].

وبدلاً من أن يؤمن به راح يخطط لقتله ويرميه بأكبر التهم وأفظعها: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]. وهذه التهمة هي بعينها حجة كل متكبر طاغ في كل عصر ومصر أمام الدعاة المصلحين.

إن من أهم أسباب تكذيب قريش للنبي ﷺ هو الخوف على المكانة الرفيعة؛ إذ كان لها الزعامة في الجاهلية على سائر العرب، الزعامة في النسب، والزعامة في الدين لمقامهم من بيت الله الحرام، ولذلك فقد تمتعوا بالأمن من بين سائر العرب، وسلموا من السلب والنهب الذي كان

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة ٢/٣.

سائداً عند غيرهم، فخافوا إن هم أسلموا أن تزول هذه الزعامة، وأن يعتدى عليهم في أموالهم ودمائهم، ونسوا أن ما هم فيه من نعم إنما هو بفضل الله تعالى الذي هيا لهم هذا الحرم الآمن، ورزقهم من الطيبات التي تجبى إليهم من كل مكان ﴿وَقَالُوا إِن نَّبِيعُ الْمَدْيَنَ مَعَكَ تَنْخَطِفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْلَمْ تُمْكِنَ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجَيِّحُ إِلَيْهِ ثَمَرَتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

لقد قام كثير من العروش والزعامات في الماضي والحاضر على أساطير وخرافات مبنية على تفوق عنصر الملك أو الزعيم وعلوه على سائر الناس، ومن ثم تعالى هؤلاء الزعماء على الحق وحاربوه خوفاً منه على عروشهم، وأن يترتب عليه مساواتهم بسائر الناس، وذهاب ما لهم من مكانة ومزية.

□ رابعاً: القوة والغنى:

القوة والغنى وكثرة العدد والعدة من النعم التي يمن الله تعالى بها على من يشاء من خلقه. وهي تستلزم شكر المنعم جل وعلا، والقيام بحقه، والإيمان بأنها ابتلاء منه سبحانه ليطهر الشاكر من الكافر. وهذا هو دأب عباد الله الصالحين كما قال تعالى عن سليمان عليه السلام وقد رزق ملكاً عظيماً: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّيَ عَنِّي كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠].

ولكن كثيراً من الناس يغفل عن هذه الحقيقة ويغتر بالنعم؛ فيطغى ويتكبر على عباد الله، ظناً منه أنه أفضل من غيره، وأكرم على الله من سواه. قال تعالى عن هؤلاء: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۖ ﴿٣٢﴾ كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَانَتْ أَكْلُهَا وَلَمْ تَطْلُرْ بِنَهْ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلْلَهُمَا نَهْرًا ۖ ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لِمَنْ نَمَرُ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۖ ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ



هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴿الآيات [الكهف: ٣٢ - ٣٦].

لقد ضرب الله تعالى في هذه الآيات مثلاً لرجلين أوتي أحدهما من أنواع النعم ما تقر به العين، وتأنس به النفس، آتاه جنتين تضمنتا من الشجر أفضله، ومن الثمر أطيبه، ومن الماء أغزره وأعذبه، كما آتاه مالا كثيراً وقوماً وأتباعاً أعزة. وبدلاً من أن يشكر الله تعالى على ما تفضل به عليه، راح يفخر ويتكبر بهذه النعم ويتعالى بها على الناس، وينكر حق الله عليه، ويكفر به، ويظن أنه مخلد في هذه الحياة الدنيا لولا ما يراه من الموت الذي يتخطف الناس، فيضع حينئذ احتمالاً لموته وبعثه، وأنه سيجد بعد البعث خيراً مما هو فيه، ويبنى هذا كله على ما له عند الله من مكانة عظيمة ومنزلة كبيرة ليست لغيره، حيث رزقه في هذه الدنيا ما شاء من النعم، وسيرزقه في الآخرة خيراً منها.

وهكذا نرى تأثير النعم على النفوس الخبيثة التي لا تؤمن بالله، ولا تقر بفضلته، ولا تعرف حكمته في المنع والإعطاء؛ فتتكبر على عباد الله، وتكسر قلوبهم بألفاظها وتعاملها، فيكون عقاب الله تعالى بإزالة هذه النعم وإبدالها بالحسرة والندامة والخسارة الدنيوية والأخروية، ذلك العقاب الذي لا يردده المال، ولا يصدده كثرة الجنود والأتباع. قال تعالى عن قارون وقد بغى وتجبر وطفى بما رزق من مال كثير: ﴿فَنَسَفْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ﴾ ﴿٨١﴾ [القصص: ٨١] (١).

□ خامساً: دعوى التفوق العنصري:

قد يكون سبب الكبر ما يراه المتكبر في أصل خلقه وعنصر تكوينه، وأنه أفضل وأعلا من غيره، ويدفعه هذا التصور إلى رد الحق وتكذيبه مع

(١). انظر: مباحث في التفسير الموضوعي: ٢٢٨ وما بعدها.

إيمانه بأنه حق. فهذا إبليس يتكبر عن السجود لآدم عليه السلام، ويعصي أمر الله في ذلك؛ لأنه يرى أن عنصره وهو النار خير من عنصر آدم وهو الطين ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتُهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: ٧١ - ٧٦]. فكان عذره أكبر من ذنبه؛ فقد امتنع عن الطاعة لأنه لا يؤمر الفاضل بالسجود للمفضول، وهو بزعمه خير من آدم فكيف يؤمر بالسجود له؟ ونسي أن شرف آدم إنما كان بتشريف الله له، حيث خلقه بيده، ونفخ فيه من روحه (١).

إن داء العنصرية هو السبب الرئيس في تكذيب اليهود، ومن بعدهم النصارى للنبي ﷺ، مع زعمهم أنهم يؤمنون بالتوراة، وإيمانهم بها يستوجب إيمانهم بالقرآن وبالنبي ﷺ، لأن القرآن مصدق لما في التوراة من الأصول والقواعد العامة، ولهذا كان ﷺ يتحدى بني إسرائيل بأمر الله تعالى له: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]. وقد جاء في التوراة والإنجيل نعته ﷺ ووصفه، وكانت بنو إسرائيل يتوعدون العرب بأنهم سيكونون معه وسينصرونه على المشركين ﴿وَكَاوُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْنِعُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ٨٩]. ولكن لم يكن يدور بخلداهم أن يبعث الله نبياً من غير قومهم، فلما رأوه عربياً خاب أملهم، وغلبتهم الأنانية، وتحرك فيهم داء العنصرية، فأبوا أن يؤمنوا به، وكبر عليهم أن يختص الله برحمته من يشاء، وكانوا كما قال الله فيهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٨٩] (٢).

وإبطالاً لهذه العنصرية، ودرءاً لآثارها السيئة على الناس فقد جاء

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٠٣.

(٢) من معاني القرآن: ٣١٣.



الإسلام راداً على بني إسرائيل زعمهم أنهم العنصر المختار، ومبيناً أنهم كغيرهم من الناس: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّوْهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَعْرِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ١٨]. ولرد عنصرية العرب ضد غيرهم من الأجناس، أو أية عنصرية أخرى قد تظهر في المستقبل؛ فقد جاء الإسلام مبيناً أصل الخلقة، وموضحاً أن الناس في عنصرهم سواسية، فهم مخلوقون من أب واحد: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ويقول النبي ﷺ: «أنتم بنو آدم، وآدم من تراب»^(١). فهل يتدبر الناس هذه النصوص ويعتبروا بما فيها ويدعوا التطاول والتكبر؟

□ سادساً: دعوى التفوق القبلي:

دعوى التفوق القبلي تنفرع في حقيقتها من دعوى التفوق العنصري، وذلك أن كل عنصر يتضمن فروعاً تسمى قبائل أو عشائر، أو غير ذلك. ويتفاضل بعضها على بعض بما يسود في كل عصر من المحامد والمكرمات. فقد يفضل بعضها بعضاً بالشرف أو الكرم أو الفصاحة أو القوة أو كثرة العدد، أو غير ذلك. ويتطور هذا التفاضل حتى يكون حمية وأنفة وعزة تحمل الفاضل على احتقار المفضول واستصغاره وعدم اتباعه وإن كان على الحق، خوفاً على المكانة والمنزلة.

وقد تستوي القبائل والعشائر في الفضل، ويتنافسون فيه، فيقودهم هذا إلى إنكار ما ثبت لبعضهم خشية أن يتقدم عليهم. ومن هذا تكذيب قريش للنبي ﷺ مع استيقانهم بأنه صادق ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣]. ويؤكد هذا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٥٢٤/٤.

قول أبي جهل: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثنا في الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذه؟! والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدق^(١).

فقریش لم تكن تكذب النبي ﷺ في الحقيقة، وإنما كانت تتكبر عليه وعلى دعوته خوفاً من استحواذ عشيرته على الشرف والقيادة دونها، وذلك أمر لا تحتمله عصبيتهم وحميتهم الجاهلية. وليس الأمر في ذلك قصراً على قریش، بل إن كثيراً من قبائل العرب لم تدخل في الإسلام، أو ارتدت عنه بعد دخولها فيه لهذا السبب. وقد ذكر عن بعض أصحاب مسيلمة الكذاب من بني حنيفة قوله: والله إنني لأعلم أن مسيلمة كاذب، وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحب إلي من صادق مضر.

إن هذه العصبية القبلية قد خفت حدتها وآثارها إلى درجة كبيرة في وقتنا الحاضر، إلا أنه قد حل محلها عصبية أخرى قد تكون أشد وأكثر خطراً، وتتمثل في التعصب للمذهب الفكري والرأي الفقهي، والدفاع عنه، وتسخير جميع الطاقات والإمكانات لنصره وبيان فضله وغلبته على غيره من المذاهب، حتى لو تبين أنه لا يقوم على الحق في جملته أو بعض فروع، وحتى لو خالف النص الصريح والأثر الثابت. ولهذا وجدنا من يلوي أعناق النصوص أو يؤولها أو يردّها - مع ثبوتها - انتصاراً لمذهبه. بل قال بعضهم: كل نص لا يوافق مذهبنا فهو منسوخ أو مؤول. وهذا في حقيقته تكبر على الحق وإعراض عنه، وإلا فقد ثبت عن أئمة المذاهب قولهم: إذا صح الحديث فهو مذهبي. وقولهم: إذا عارض رأيي قول رسول الله ﷺ فاضربوا به عرض الحائط. فهل يتفكر هؤلاء ويعتبرون؟!

(١) انظر: تفسير ابن كثير ١٢٩/٢، ١٣٠.



□ سابعاً: العلم:

الأصل في العلم أنه نعمة تورث صاحبها كمال الإيمان بالله تعالى، وقبول الحق ورد الباطل، والتواضع للناس. ولكن قد يحصل عكس هذا، فيتكبر المتعلم ظاناً أنه قد علا بعلمه على سائر الناس، وصار بما حصله خيراً منهم، وأن الحق ما هو عليه، وأما ما سواه فهو الباطل. وسبب ذلك تجرد العلم من الإيمان الحقيقي الذي يعصم صاحبه، فيصير علمه فتنة تعمي وتطغي، وتصد صاحبه وغيره عن الحق. فاليهود تكبروا على رسول الله ﷺ، وجحدوا ما جاء به. وكان من أهم أسباب ذلك ظنهم أن ما عندهم من العلم مغن عما سواه ولو كان حقاً: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَزُومُنْ بِمَا أُنزَلَ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: ٩١]. وهم ليسوا في ذلك بدعاً، بل قال الله تعالى في من قبلهم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿١٨٣﴾ [غافر: ٨٣].

إن زيف هؤلاء وأمثالهم ممن ازدادوا بالعلم كبراً وتعاضماً يرجع إلى سببين رئيسين:

أحدهما: أن يكون اهتمامهم بما يسمى علماً، وليس هو في الحقيقة علماً. وإنما العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه؛ فإن هذا يورث الخشية والتواضع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، فأما ما وراء ذلك من العلوم الطبيعية والتطبيقية، بل وعلوم اللغة والشعر والنحو والفلسفة والجدل، فإن الإنسان إذا تجرد لها دون أن يستخدمها في معرفة الله تعالى؛ فإنه يزداد بها كبراً ونفاقاً.

والآخر: أن يطلبوا العلم وهم على خبث دخيلة ورداءة نفس وسوء أخلاق، دون أن يعنوا بتهديب نفوسهم وتركية قلوبهم وترويضها في عبادة الله وطاعته، فيبقون على خبث جوهرهم، فإذا طلبوا العلم صادف من قلوبهم منزلاً خبيثاً؛ فلم يطب ثمره ولم يظهر أثره. وقد ضرب لهذا مثل بالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر

طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة، فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً.

إن الواجب في حق العالم والمتعلم أن يستحضر كل منهم عظمة ما يطلبه، وحقه إذا حصله. ومن أبرز حقوق العلم التواضع للناس والانبساط لهم، وعدم التعالي عليهم. وقد كان السلف الصالح من هذه الأمة يحذرون أشد الحذر أن يكون علمهم سبباً في تكبرهم، ولذلك لم يكونوا يظهرون ما يعلمون، وربما سئل أحدهم عن المسألة وهو يعلمها، فلا يفتي فيها، بل يحيل السائل إلى غيره، وربما ترك إمامة الناس خوفاً على نفسه. فهذا حذيفة بن اليمان . يصلي بالناس، فلما سلم من صلاته قال: لتلمسن إماماً غيري أو لتصلن وحداناً، فإني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني. فإذا كان مثل حذيفة لا يسلم، فكيف يسلم الضعفاء من متأخري هذه الأمة الذين أخذت أكثرهم الأنفة والعزة لما حصلوه من علم قليل؟^(١).

□ ثامناً: الترف والغرور:

يتأثر سلوك الإنسان غالباً بالبيئة التي يعيش فيها، فإن كانت بيئة طيبة تسودها قيم المحبة والمودة والألفة والتعاون ونكران الذات؛ فإن الإنسان ينشأ متشبعاً بتلك القيم، مؤمناً بها، عاملاً بمقتضاها. وإن كانت بيئة تسودها قيم الأثرة والأنانية والترف وعدم الاهتمام بالمجتمع المحيط؛ فإن الإنسان ينشأ كذلك مترفاً أنانياً مغروراً، لا يرى غير نفسه، ولا يهتم بسواه.

وهذه العينة الأخيرة هم أكثر الناس بعداً عن منهج الله، وأشدّهم إنكاراً للحق، ومحاربة له. لأنه يحطم الأسس التي أقاموا عليها فلسفتهم في الحياة.

ولذلك نجدهم أول المعارضين للرسول ورسالاتهم وما جاؤوا به من

(١) إحياء علوم الدين ٣/٣٣٩.



عقيدة ومنهج. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سبا: ٣٤]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣]، وقال أيضاً: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةُ أَتَرْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٢٢﴾﴾ وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣، ٣٤].

إن مواقف المترفين من الحق تتشابه في كل عصر ومصر، فالترف يغلظ القلوب، ويفسد الفطرة فلا ترى دلائل الهداية، وتستكبر على الهدى وتصر على الباطل. والمترفون تخدعهم القيم الزائفة والنعيم الزائل، ويغرمهم ما هم فيه من ثراء وقوة، ويحسبون أنهم يمتنعون به من عذاب الله. فهذا أبو جهل يقول له النبي ﷺ: «أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى». فيجيبه عدو الله قائلاً: أتوعدني يا محمد؟ والله لا تستطيع أنت ولا ربك شيئاً وإني لأعز من مشى بين جبليها. وفي رواية أن النبي ﷺ قال له: «إن الله أمرني أن أقول لك: أولى لك فأولى، ثم أولى لك فأولى»، فقال: ما تستطيع لي أنت ولا صاحبك من شيء، ولقد علمت أنني أمتع أهل البطحاء، وأنا العزيز الكريم. فقتله الله يوم بدر وأذله وعيره بكلمته، وأنزل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]^(١).

□ تاسعاً: الحسد:

الحسد تمنى زوال نعمة المحسود، وإن لم يصبر للحاسد مثلها، وربما كان مع ذلك سعي في إزالتها. فإن تمنى مثلها وإن لم تزل فهي غبطة. وهي محمودة لقول النبي ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه

(١) تفسير ابن كثير ٤/١٤٦، ٤٥٢.

على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس^(١). أما الحسد في غير ذلك فمذموم^(٢).

والحسد من أهم الأسباب المفضية إلى الكبر وجحد الحق ومنع قبول النصيحة وتعلم العلم. فكم من جاهل يشاق إلى العلم وقد بقي في رذيلة الجهل؛ لاستنكافه أن يستفيد من واحد من أهل بلده وأقاربه، حسداً وبغياً عليه، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل علمه، ولكن الحسد يحمله على أن يعامله بأخلاق المتكبرين، وإن كان في باطنه ليس يرى نفسه فوقه^(٣).

وموقف بني إسرائيل من النبي ﷺ، ومن دعوته، ومن المؤمنين به، من أعظم الدلائل على كون الحسد مورثاً للكبر وداعياً إليه. فقد كفروا به، وعادوه، وحاربوه، وألبوا القبائل عليه، مع علمهم بصدقه ووجوب اتباعه. قال تعالى في بيان حالهم وكشف أستارهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ أَنْفُسِهِمْ أَن يَخْرُجُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَعِيًّا أَن يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [البقرة: ٩٠].

ومن الدلائل أيضاً: موقف رأس النفاق عبدالله بن أبي بن سلول من النبي ﷺ، ومن الإسلام، وهو موقف النفاق والكيد وإثارة الفتن والشبهات للنيل من الدعوة وصاحبها ﷺ، وسبب ذلك ما وقع في قلبه من حسد للنبي ﷺ، الذي قضت بعثته على أمله في أن يكون ملكاً على الأوس والخزرج في المدينة.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، ١٣٤/٢.

(٢) تفسير القرطبي ٢٥٩/٢٠.

(٣) إحياء علوم الدين ٣٤٤/٣.



ويشهد لذلك ما جاء في سياق غزوة بني المصطلق، وما حصل فيها من نزاع بين نفر من المهاجرين ونفر من الأنصار، إذ قال عبدالله بن أبي عندها: قد ثاورونا في بلادنا، والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: سَمْنُ كلبك يأكلك، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

فلما علم النبي ﷺ بذلك ارتحل في وقت لم يكن يرتحل فيه؛ خشية وقوع الفتنة بين المسلمين، وقد شاعت مقولة عبدالله بن أبي فيهم، وأقبل الأنصار يعتذرون للنبي ﷺ من هذه المقولة، ويطلبون منه أن يترفق بصاحبها، وكان من ذلك ما قاله أسيد بن الحضير:، حيث قال: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لتوجه، فإنه ليرى أن قد سلبته ملكاً..^(١).



(١) انظر: تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير ٣٧٠/٤.

المبحث الثالث:

مظاهر الكبر

للكبر سمات بارزة، ومظاهر واضحة تنبئ عما في نفس صاحبها من التعالي والتعظيم على الناس، وهي من الظهور بحيث لا تخفى على من يراها، وتتعلق بقول المتكبر وفعله. وفيما يلي عرض لأهمها:

□ أولاً: بطر الحق:

ثبت من حديث عبدالله بن مسعود . عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر». قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة. قال: «إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(١). والمقصود ببطر الحق رده ودفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً، وذلك أن لصاحب الحق مقالاً وصولاً، والنفوس المتكبرة لا تفر بالصولة لغيرها، فتصول على صولة الحق بكبرها وباطلها. ولذلك كان من حقيقة التواضع: خضوع العبد لصولة الحق، وانقياده لها، فلا يقابلها بصولة عليها، بل ينقاد لما جاء به النبي ﷺ، ويستسلم له ويدعن، ولا يعارضه بشيء من المعقول أو القياس أو غيرهما^(٢).

ومن أهم ما يندرج تحت بطر المتكبرين للحق مجادلته في آيات الله بغير علم ولا سلطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه مع شرح النووي ٨٩/٢.

(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ٩٠/٢، مدارج السالكين ٣١٨/٢.



يَغْتَرِ سُلْطَانِي أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبَرٌ مَّا هُمْ بِيَلْفِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ [غافر: ٥٦]. فالإنسان وهو المخلوق الضعيف ينسى نفسه في أوقات كثيرة فيتعدى إلى أمور لم يكن له تعديها، ويتجاوز إلى حدود لم يكن له تجاوزها، ويجادل في آيات الله ويكابر، زاعماً لنفسه وللناس أنه إنما يناقش بهدف الإقناع، ويجادل بهدف الاستيقان. والله سبحانه المطلع على السرائر يقرر أن الذي دفعه إلى ذلك هو الكبر، فهو الذي يدفع صاحبه إلى الجدل فيما لا يصح الجدل فيه، وإلى التناول على ما ليس من حقه.

إن بطر الحق ودفعه وإنكاره ليظهر في سلوك كثير من المنتسبين للعلم، لا سيما أولئك المتعصبون لمذهب من المذاهب، أو رجل من الرجال، أو طريقة من الطرق؛ لأن هدفهم الأسمى هو الانتصار لما تعصبوا له ولو خالف الحق. فلي أعناق النصوص، وتحريف الكلم عن مواضعه، والاستشهاد بما لا يصح من الأحاديث والآثار الضعيفة والموضوعة، والجدال العقلي الذي لا ينتهي، كل ذلك جائز لتحقيق هذا الغرض، وهذا كله مع وضوح الحق وظهوره.

□ ثانياً: غمط الناس:

تقدم حديث رسول الله ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»، والمقصود بغمط الناس^(١): احتقارهم واستصغارهم وازدراؤهم، وأن يجيء المتكبر شامخاً بأنفه عليهم، وإذا رأى ضعفاءهم وفقراءهم لم يسلم عليهم ولم يجلس إليهم؛ تعالياً وترفعاً عنهم^(٢).

والترفع عن مجالسة الفقراء والمستضعفين من أخلاق المتكبرين

(١) جاء في رواية أخرى: غمض الناس، بالصاد بدل الطاء. وهما بمعنى واحد. انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ٩٠/٢، وتفسير القرطبي ٢٩٦/١.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين ٣٣٨/٣، مدارج السالكين ٣١٨/٢، فتح الباري ٤٠٩/١٠.

وصفاتهم، ويدل لذلك ما قصه القرآن علينا من أحوال الأنبياء السابقين مع أقوامهم، وما كان منهم من التكبر على المستضعفين من المؤمنين وازدراؤهم لهم، حتى كان ذلك سبباً في انصرافهم عن الحق وعدم قبولهم له. وقد حصل ذلك مع نبينا محمد ﷺ. وقد تقدم أن مشركي مكة طلبوا من النبي ﷺ أن يخصص لهم يوماً لا يجالسهم فيه المستضعفون كعمار وبلال وصهيب وغيرهم، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف: ٢٨] ^(١).

□ ثالثاً: التعالي برفع الصوت:

من أبرز مظاهر المتكبرين المبالغة في رفع أصواتهم تعالياً ومفاخرة بجهارتها، وهذا الفعل منهم يدل على عدم الثقة بالنفس، وعدم الاطمئنان إلى صدق الحديث وقوته، والشك في قيمته، ومن ثم فهم يحاولون إخفاء هذه العيوب بالحدة والغلظة والصخب.

ولما كان هذا المظهر من الأخلاق الذميمة المنكرة فقد جاء القرآن محذراً منه ومقبحاً له، قال تعالى في سياق وصايا لقمان لابنه: ﴿وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]، فقد دل هذا على شناعة رفع الصوت وفحشه، حيث شبه من يرفع صوته من غير حاجة إلى رفع الصوت بالحمار، وشبه صوته بنهيق الحمار؛ وذلك أن الحمار يضمن بصوته عند الحاجة، ويصيح في أوقات عدم الحاجة. ثم هو مثل في الدم، ونهيقه مثل في الشناعة. وقد كانت العرب ترى أن اسم الحمار لا يذكر في مجلس قوم من أولي المروءة، ومن العرب من كان لا يركب الحمار، ولو بلغت به الرحلة ما بلغت. فالحمار ذميم وصوته ذميم، وهو أقبح الأصوات وأنكرها ^(٢).

(١) تقدم الكلام عن بعض أوجه التكبر على الخلق بما يغني عن الإعادة.

(٢) انظر: حديث رمضان: ٧٦، فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان: ٩٦.



وقد ذهب بعض العلماء إلى أن تمثيل رفع الصوت بصوت الحمار يقتضي تحريمه، وذمه غاية الذم. وذكروا في استدلالهم على ذلك ما رواه أبو هريرة . عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم صياح الديكة فاسألوا الله من فضله، وإذا سمعتم نهيق الحمير فتعوذوا بالله من الشيطان؛ فإنها رأت شيطانا»^{(١)(٢)}.

وينبغي أن يعلم أن رفع الصوت ليس مذموماً في كل حال، بل هو محمود في بعض الأحوال، لا سيما إذا احتيج إليه كما في الأذان والخطب والمواعظ والتعليم... ونحوها. فينصرف ذمه إلى حصوله دونما حاجة. ولعل هذا المعنى يفهم من التمثيل البالغ بصوت الحمار دون غيره كصوت الكلب، فإن كليهما مذموم مستقبح، إلا أن نباح الكلب قد يقع أحياناً لأمر مفيد، كالتحذير من عدو، أو التنبيه لقدم غريب. وهذا لا يكون في نهيق الحمار.

□ رابعاً: التناول بالمشية:

التناول بالمشية من سمات المتكبرين وصفاتهم الظاهرة، حيث يمشون بتبخر وتمایل وغطرسة؛ تعاظماً وتعالياً على الناس. وقد ورد النهي عن هذه المشية بقوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾ [الإسراء: ٣٧].

والمتدبر للآية الثانية يرى أنها قد تضمنت الإشارة إلى نوعين رئيسيين من أنواع مشية المتكبرين المختالين:

أولهما: أن يضرب المختال الأرض أثناء مشيه بعقبه، فيصحب نزوله على الأرض بثقل جسمه صوت من نوع معين، وربما اهتز له المكان؛

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء ٢٠٩٢/٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤٤٦/٣.

قاصداً لفت أنظار الآخرين، ولا يقنع بذلك بل يتمنى لو أنه كان من القدرة والضخامة والثقل بحيث يستطيع أن يحدث في الأرض أثراً، وأن يخرق بكل خطوة يخطوها خرقاً في الأرض أو عمقاً. وهذا النوع من المشية أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ [الإسراء: ٣٧].

وأما النوع الثاني: فهو ذلك المشي الذي يعتمد أثناءه المختال الفخور على صدور قدميه، ويكاد لغروره وتكبره أن يمشي على رؤوس قدميه، بل إن أوهامه تجعله في حكم المتمني لو أنه ارتفع في مشيه من على سطح الأرض، وعلا فوق رؤوس الخلق جميعاً. والحامل على ذلك اعتقاد المتكبر أنه يفضل الآخرين ويمتاز عليهم في كل شيء، ومن ثم فهو خليق بأن يتميز بنوع من الحركة والانتقال، ذلك التميز الذي رمز له بمشيته على صدور قدميه وتبختره واختياله، متمنياً في أعماقه لو قدر له أن ينفرد بين العباد بجسم أكبر وهيكل أضخم؛ كي يعرفه الناس ويميزوه، دون الحاجة إلى هذه المشية، وإلى الشموخ بالرأس والأنف. ولكن هذا لا يرضي غروره، بل إنه يتطلع إلى أن يكون كمثل الجبل، وليس أي جبل، بل أكبر الجبال ضخامة وأعلاها طولاً، لأنه حينئذ يستطيع أن يزدري عباد الله كلهم، كما يستطيع أن يحملهم على رفع رؤوسهم إليه، وقبول تعاليه عليهم واحتقاره لهم. وهذا النوع من المشية أشار الله تعالى إليه بقوله: ﴿وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً﴾^(١).

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يعامل المتكبر بنقيض قصده، وأن يجازى بعكس مراده. ويدل لذلك قوله ﷺ: «بينما رجل يمشي فيمن كان قبلكم وعليه بردان يتبخر فيهما إذ خسف به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»^(٢). وقارون أخبر الله تعالى عنه أنه خرج على قومه متباهياً مختالاً في زينته، فكان جزاؤه أن خسف الله به وبداره الأرض.

(١) تأملات في سورة الإسراء: ١٦٧ - ١٦٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه مع فتح الباري: ٢٢٢/١٠.



إن الله تعالى قد كرم عباده المؤمنين بإبعادهم عن منهج المتكبرين وطرائق مشيهم، فقال سبحانه واصفاً لهم: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣]. فبين تعالى أنهم يمشون على الأرض مشياً هيناً رقيقاً لا تكلف فيه ولا تصنع، فهم لا يتكلفون المشي الهين، ولا يتكلفون ضرب الأرض بأقدامهم أشراً وبطراً، ولا التبخر خيلاء، بل يرسلون أنفسهم على طبيعتها، لا يقصدون الكبر والعلو، ولا يقصدون بالرفق في المشي الرياء^(١).

وللتعبير بحرف الجر «على» في قوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] معنى حكيم، وإشارة بليغة، ومرمى لطيف بعيد؛ وهو أن عباد الرحمن أثناء مشيهم على الأرض يقتصرون على النافع والضروري منه، ولا يكادون يحدثون أثراً في الأرض التي يمشون عليها. وهذا بخلاف حال المتكبر، فإن الله تعالى قال في حقه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان: ١٨]، فاستعمل حرف الجر «في» وهو في حال المتكبر أليق وأبلغ في الدلالة على المعنى، وذلك أن المتكبر يحب ذلك النوع من المشي لذاته، وليس لما وراءه من مصلحة أو منفعة، لأن هدفه في الغالب الأعم أن يظهر نفسه للآخرين جاذباً انتباههم إليه، وذلك لا يكون إلا إذا ضرب الأرض بعقبه بقوة، كأنما يريد خرقها^(٢).

والتعبير القرآني بكلمة «هوناً» يدل على أن مشي المؤمنين يجب أن يكون وسطاً بين الدبيب والإسراع، وذلك أن الدبيب فيه تماوت وذل لا يليق بالمؤمن، والإسراع يذهب الهيبة، ويورث صاحبه الحقارة في أعين الناس؛ لما يدل عليه من الخفة. قال ابن مسعود: كانوا ينهون عن خبب اليهود، ودبيب النصارى، ولكن مشياً بين ذلك^(٣).

(١) انظر: حديث رمضان: ٢٨، فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان: ٩٥.

(٢) تأملات في سورة الإسراء: ١٧١، ١٧٢.

(٣) فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان: ٩٥.

❑ خامساً: ثني العطف وتصغير الخد:

من مظاهر الكبر الواضحة ثني العطف وتصغير الخد. قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّثِيرٍ ۝٨﴾ ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ ۖ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ۝٩﴾ [الحج: ٨، ٩]. وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [القمان: ١٨]. ومعنى «ثاني عطفه»: لآويه، والعطف: الرقبة. والمعنى: أنه يعرض عما يدعى إليه من الحق ويشني رقبته استكباراً. وأما تصغير الخد فمعناه: أن يحتقر المتكبر عباد الله ويعرض عنهم بوجهه إذا كلموه. وأصل الصعر داء يأخذ الإبل في أعناقها أو رؤوسها حتى تلتفت أعناقها عن رؤوسها، فشبّه به الرجل المتكبر.

وعلى ذلك فكلا اللفظين - ثني العطف وتصغير الخد - يعودان إلى معنى واحد، وهو إعراض المتكبر بوجهه عن الناس وهو يُدعى إلى الحق، وصدوده عن الحق نفسه^(١). وهذا هو حال المستكبرين من الكافرين والمنافقين كما أخبر الله تعالى عنهم بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ۝١١﴾ [النساء: ٦١]، وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّأْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ۝٥﴾ [المنافقون: ٥].

والمتدبر لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ...﴾ الآية [الحج: ٣]، يجد استنكاراً واستغراباً لموقف المتكبر الذي يجادل في الله تعالى بعد ما ذكر من الدلائل في الآيات السابقة لهذه الآية. ويزداد الأمر نكارة وغرابة إذا كان المتكبر يجادل بغير علم، ولا يستند إلى دليل، ولا يقوم في ذلك على معرفة، ولا يستمد قوله من كتاب ينير القلب والعقل، ويوضح الحق، ويهدي إلى اليقين. ومن ثم فالتكبر يعوض عن هذا بالتعالي

(١) تفسير ابن كثير ٢٠٩/٣، ٤٤٦.



والتعاضم ليضل عن سبيل الله، فلا يكتفي بأن يضل في نفسه، وإنما يحمل غيره على الضلال.

إن هذه النصوص بما فيها من العبر والعظات توجه المؤمنين إلى ما يجب أن يكونوا عليه في مقابلة الحق ومواجهة الناس، فالحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها فهو أحق بها، فلا يتكبر على تحصيلها والانتفاع بها، ولا يعرض عن الحق ويصد عنه. كما أنه ليس له أن يعرض عن الناس بوجهه تكبراً وتعالياً، بل يقبل عليهم ويأخذ عنهم ويظهر الاهتمام بما يقولون، فإن ذلك من مكارم الأخلاق التي أمر الإسلام بها وحث عليها.

□ سادساً: مجاوزة الحد في الزينة:

استعمال الإنسان الزينة وإظهاره لها لا يخلو من أمرين، أولهما: التحدث بنعمة الله جل وعلا، والآخر: الكبر والخيلاء والتباهي. فالأول جائز، بل مستحب؛ لأن الله تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ويتأكد استعمال الزينة من الثياب النظيفة الحسنة والطيب ونحوه في المساجد، قال تعالى: ﴿يَبْقَىٰ ۖءَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١]. وأما الآخر، وهو استعمال الزينة في الكبر والخيلاء فمذموم، لقول النبي ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة»^(١)؛ حيث تضمن الحديث بيان إباحة الأكل والشرب واللبس مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]. لكن تلك الإباحة مقيدة بأن لا يخرج الإنسان في هذه الأمور المذكورة عن الحد المشروع إلى الإسراف أو الكبر، فإن فعل فقد عصى الله وارتكب المحرم.

(١) أخرجه البخاري في الصحيح مع فتح الباري ٢١٥/١٠.

وعلى ذلك فاستعمال الزينة بهدف الكبر محرم، ويمثله في الحرمة إطالة الثياب وجرها بقصد الاختيال، لقول النبي ﷺ: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»^(١). وهذا من المظاهر الملاحظة على كثير من المتكبرين، حتى صارت إطالة الثوب أو العباءة أو غيرها علماً عليهم تميزهم عن غيرهم.

□ سابعاً: الظلم والعدوان:

ظلم الناس والتعدي عليهم في أنفسهم وأعراضهم وديارهم وأموالهم من المظاهر التي يغلب ارتباطها بالكبر. فالتكبر يرى الصواب فيما هو عليه، والحق فيما يدين به ويعتقده ولو كان خطأ. ولهذا يعادي المعارضين، ويحتقر أديانهم ومناهجهم وسلوكياتهم، ويسعى إلى حملهم على ما هو عليه.

ومن تأمل في حال المتكبرين قديماً وجد هذا الأمر ظاهراً جلياً، ففرعون عادي موسى عليه السلام ومن معه، فضيق عليهم وحاربهم وقتل بعضهم واتهمهم بالإفساد وهم باستئصال شأفتهم. كل ذلك لأنهم خالفوا ما هو عليه. قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال تعالى عن حال فرعون مع السحرة الذين آمنوا وخالفوه: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَأَمِنْتُ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكَ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرَتُهُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجُوا مِنهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [١٢٣] لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَجْلَعُكُمْ مِنَ خَلْفِ تَمَّ لِأَصْلَابِكُمْ أَجْمَعِينَ [١٢٤] [الأعراف: ١٢٣، ١٢٤].

أما المتكبرون من قريش فلا يخفى ما وقع منهم من الظلم والعدوان في حق رسول الله ﷺ، ومن آمن به. وهو عدوان تدرج من الاستهزاء

(١) أخرجه البخاري في الصحيح مع فتح الباري ٢١٦/١٠.



اللفظي إلى القتال، مروراً بالجدال والإغراء والتهديد والتعذيب والتهجير والحصار الاقتصادي.

وفي عصرنا الحاضر لا يختلف الحال كثيراً، فالمتكبرون المعجبون بما هم عليه يسعون تحت ستار العولمة إلى فرض مرئياتهم وتصوراتهم للكون والحياة والإنسان، وإلى نشر وترسيخ نظمهم الأخلاقية والاجتماعية والاقتصادية. ومن استعصى عليهم من الأمم فهو خليف بأن يغزى في عقر داره، وأن يسلب إرادته وأرضه وثروته.



المبحث الرابع:

آثار الكبر

□ أولاً: الآثار الدنيوية:

١ - الإبعاد عن منهج الله تعالى:

إن من يرتضي الكبر سلوكاً وتصرفاً ومنهجاً لحياته، ويعرض عن آيات الله وتوجيهاته؛ فإنه بذلك يبتعد عن الطريق الذي أراده الله تعالى لعباده، ويكون جزاؤه أن يزيده الله بعداً وضلالاً. قال تعالى: ﴿سَاصِرُونَ عَنِ الْآيَاتِ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلاًّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءَ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الأعراف: ١٤٦، ١٤٧].

فهؤلاء المتكبرون الذين نازعوا الله تعالى صفة من صفاته، وتكبروا على الحق، وحادوا عن سبيل الرشداً أينما كان، وجنحوا إلى سبيل الغي حيث كان؛ اقتضت مشيئة الله تعالى أن يجازيهم على تكذيبهم بآياته وغفلتهم عنها بصرفهم عن هذه الآيات، وسلبهم سبل الانتفاع بها. وليس هذا ظلماً لهم، بل هو الجزاء الحق، فبعملهم جوزوا، وبسلوكهم أوردوا موارد الهلاك.

والإبعاد عن منهج الله يشمل أيضاً - كما دلت عليه الآيتان السابقتان - حرمان المتكبر من فهم الحجج والأدلة والبراهين الدالة على عظمة الله



تعالى، وعلى شريعته وأحكامه، فيذله الله بالجهل كما استكبر بغير الحق. قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. قال بعض السلف: لا ينال العلم حيي ولا مستكبر. وقال آخر: من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبداً^(١).

٢ - العداوة والبغضاء:

تقدم ذكر بعض ما يصدر من المتكبر من أفعال تجاه الناس، كاحتقاره لهم وترفعه عن مجالستهم ومؤاكلتهم، وارتفاعه عليهم في المحافل، وانتظاره أن يبدؤوه بالسلام، والتقدم عليهم في مضايق الطرق... ونحو ذلك. ولا شك أن هذه الأفعال تترك أثراً كبيراً في نفوس الناس تجاه المتكبر؛ فإن النفس قد جبلت على حب من يحسن إليها، وبغض من يسيء إليها. ولما كانت أفعال المتكبر هذه من أشد الأمور إساءة وأكثرها إيلاًماً؛ كان من الطبيعي أن يتولد عنها بغض الناس وكراهيتهم للمتكبر، بل واحتقارهم له، وسخريتهم منه، وتمنيهم أن يحل به من المصائب والنقم ما يشفي صدورهم منه ويذهب غيظ قلوبهم.

وهذه الحال تجعل المتكبر يعيش في عزلة وانطوائية؛ لأن البغض يزيل الألفة بين الناس ويحل محلها الكلفة، فلا يُقبل الناس على المتكبر ولا يرضون بالتعامل معه إلا خوفاً من بطشه وسطوته، فإن أمن البطش كانت القطيعة والعزلة، فلا ينتفع بالمتكبر. فإن كان عالماً أعرض الناس عن علمه، وإن كان تاجراً هجروه وصاروا إلى غيره، وإن كان ذا سلطان تجنبوه وتمنوا زواله. فيبقى كأنما يعيش وحده. ويُحرم من القيم والروابط الاجتماعية التي تهون على الإنسان كثيراً من مصاعب الحياة.

(١) تفسير ابن كثير ٢/٢٤٧.

٣ - التعرض للعقوبات الدنيوية:

من أعظم ما يترتب على الكبر من الآثار تعريض المتكبر نفسه لسخط الله وعقوبته، فقد نازعه صفة من صفاته، لا تليق إلا به سبحانه ﴿وَلَهُ الْكِبَرِيَّاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الجاثية: ٣٧]. والمتبع لقصص القرآن الكريم يجد أن العقوبة تعجل للمتكبر في الدنيا قبل الآخرة؛ لعظم جرمه وشناعته. ومن حكمة الله تعالى أن يصاب المتكبر فيما يرى أنه سبب تكبره، ودافع تعاليه على الناس. فإن كان السبب المال محق ودمر، وإن كان الملك والسلطان أزيل وحل محله الذل والهوان، وإن كان قوة النفس وغلبتها أهلكت هذه النفس، ولم تغن عنها قوتها وغلبتها من عذاب الله شيئاً.

قال تعالى عن صاحب الجنتين، وقد تكبر بسبب ماله: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ فَأَصْبَحَ يَقْلُبُ كَفْبَهُ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّيَ أَحَدًا﴾ [٤٢] ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَمْ فِتْنَةً يَصُورُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصَرًّا﴾ [٤٣] ﴿[الكهف: ٤٢، ٤٣]. وعاد قوم هود غرهم ما هم فيه من كثرة العدد والعتاد والقوة والمنعة فتكبروا على المنعم الواهب، وكفروا به وبرسوله المبعوث رحمة لهم، وظنوا أن قوتهم مانعهم من الله، فتعرضوا لسخطه، وكان هلاكهم بالريح الشديدة القوية، لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وأبدلوا بالعزة والمنعة ذلاً وخزياً في الحياة الدنيا وفي الآخرة: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [٤٤] ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَنْذِرَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْرَىٰ وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥، ١٦].

أما فرعون فغره ملكه: ﴿قَالَ يَتْلُو الْفُتُورِ أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، وقاده إلى الطغيان والتجبر على المستضعفين، والتكبر على من بعثه الله هداية له ولقومه. فكان عقاب الله له أن نزع ملكه وأذله وأهلكه وجعله عبرة لمن بعده. وصار ذلك سنة إلهية في إذلال الطغاة



لا تتخلف مهما اختلفت الأزمنة والأمكنة. فكم رأينا من طغاة هذا العصر وقد مكنوا في الأرض بالملك، فعاثوا فيها فساداً، وبغوا وتجبروا وأذلوا شعوبهم وأذاقوهم ألوان العذاب، وسلبوا أموالهم ومقدراتهم؛ فكان جزاءهم سلبُ سلطانهم، والقضاء على حكمهم، وتشريدهم في أنحاء الأرض أذلة صاغرين.

□ ثانياً: الآثار الأخروية:

١ - الصغار والهوان:

من أبرز الآثار الأخروية للكبر: الصغار والهوان. قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]. فبين سبحانه أن من تكبر عن دعائه وتوحيده أدخله جهنم صاغراً حقيراً، جزاءً وفاقاً على عمله. وفي الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الناس يعلوهم كل شيء من الصغار حتى يدخلوا سجنًا يقال له: بؤس، تعلوهم نار الأنيار، يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار»^(١).

إن هذه هي نهاية الكبر الذي تمتلئ به قلوب وصدور كثير من الناس في هذه الحياة، متناسين عظمة خلق الله تبارك وتعالى، فضلاً عن نسيانهم لعظمة الله، ونسيانهم للدار الآخرة، وهي آتية لا ريب فيها، ونسيانهم للموقف الذليل في الآخرة بعد التعالي والاستكبار^(٢).

٢ - حرمان دخول الجنة:

من أهم الآثار الأخروية للكبر: حرمان المتكبر من دخول الجنة، قال

(١) أخرجه الترمذي في سننه، صفة القيامة، ٦٥٥/٤، ح ٢٤٩٢. وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٨٦/٤، إحياء علوم الدين ٣٢٨/٣.

تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠]. فقد تضمنت هذه الآية بيان استحالة دخول المتكبرين الجنة كما يستحيل دخول الجمل في ثقب الإبرة^(١).

ويؤكد هذا المعنى قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد في قلبه مثقال حبة خردل من كبرياء»، وفي رواية: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»^(٢). قال النووي عن هذا الحديث: اختلف في تأويله فذكر الخطابي فيه وجهين: أحدهما: أن المراد التكبر عن الإيمان فصاحبه لا يدخل الجنة أصلاً إذا مات عليه. والثاني: أنه لا يكون في قلبه كبر حال دخوله الجنة، كما قال الله تعالى: ﴿وَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍ﴾ [الأعراف: ٤٣]. قال النووي: وهذان التأويلان فيهما بعد؛ فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف، وهو الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق. فلا ينبغي أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب. ورجح - النووي - ما اختاره القاضي عياض وغيره من المحققين: أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه. وقيل: هذا جزاؤه لو جازاه، وقد يتكرم بأنه لا يجازيه، بل لا بد أن يدخل كل الموحدين الجنة، إما أولاً، وإما ثانياً بعد تعذيب بعض أصحاب الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها. وقيل: إنه لا يدخلها مع المتقين أول وهلة^(٣).

والذي أراه أن الحديث يشمل ما ذهب إليه الخطابي في تأويله الأول، فيراد بالحديث المتكبر عن الإيمان بالله تعالى، فهذا لا يدخل الجنة أبداً.

(١) ذهب الجمهور إلى أن الجمل في هذه الآية هو ابن الناقة. وروي عن ابن عباس أنه كان يقرأ: الجَمَل، بضم الجيم وتشديد الميم، وهو الحبل الغليظ. وهذا اختيار سعيد بن جبير. انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢١٤.

(٢) أخرجه مسلم في الصحيح مع شرح النووي ٢/٩٠، ٨٩.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/٩١. وانظر: فتح الباري ١٠/٤١٠.



ويشمل أيضاً المتكبر على الخلق، وهو الذي ذهب إليه القاضي عياض. ويكون المعنى أنه لا يدخل الجنة إلا بعد مجازاته على تكبره، وقد يعفو الله تعالى عنه فلا يجازيه.

٣ - تحمل أوزار الأتباع:

الأصل أن الإنسان يجازى على عمله، فلا ينفعه صلاح غيره، ولا يضره ضلاله. لكن لما كان الكبراء والرؤساء لهم الكلمة، ولهم الأمر على أتباعهم بحيث يملكون توجيههم إلى حيث يريدون؛ اقتضت حكمة الله وعدله أن يكون لهم مثل جزاء أتباعهم ثواباً أو عقاباً، دون أن ينقص ذلك أو يؤثر في جزاء الأتباع. قال ﷺ: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة من غير أن ينقص من آثامهم شيئاً»^(١).

ولما كان زعماء الكفار قد تكبروا على الحق وحاربوه، وجحدوا نعمة الله تعالى بإرسال الرسل وإنزال الكتب، وتبعهم العامة في ذلك طاعة لهم، واقتداءً بهم، وثقة بصواب رأيهم؛ صار من العدل أن يكون على هؤلاء الزعماء من الآثام والأوزار - مع أوزارهم هم - مثل أوزار أتباعهم الذين ضلوا بسببهم. قال تعالى: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۖ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكِبُونَ﴾ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُمْ لَا يُحِبُّونَ الْمُسْتَكِبِينَ (٢٣) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رِجْكَ قَالُوا أَسْطِطِعُ الْأُولَئِكَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٢٥) [النحل: ٢٢ - ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلِيَحْمِلُوا أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسَّ لُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْعَرُونَ﴾ (١٣) [العنكبوت: ١٣].

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب العلم ٢٠٦٠/٤ ح ٢٦٧٤.

ولا يعفى الاتباع من المسؤولية والعقاب؛ عقاب المتبوعين، بل إن لكل منهم جزاءه، كما دل على ذلك الحديث السابق. وهذه عاقبة من ألغى عقله، وأهان حريته وكرامته التي منحها الله إياها، وانساق وراء الكبراء والرؤساء، متوهماً أنهم يقودونه إلى الخير ويحمونه من الشر. ويوم القيامة يبطل ذلك كله، فلا تابع ولا متبوع، بل جميعهم في النار، لا يغني بعضهم عن بعض شيئاً ﴿وَإِذْ يَتَحَاوَرُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ أَضَعَفْتُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ۖ﴾ (٤٧) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّكَ اللَّهُ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ [غافر: ٤٧، ٤٨].

٤ - دخول النار في صورة مذلة مهينة:

إن الصورة التي تمثل مآل المتكبرين في الآخرة هي صورة مقابلة لواقعهم الدنيوي، فبدلاً من العزة والعظمة والتعالي على الناس، والتفاخر بكثرة المال وتنوع المملكات من الأطعمة والأشربة وأنواع المركوبات وفاخر المجالس والمساكن؛ نجد الذلة والصغار بكل وجوهه. قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصْرِفُونَ ۖ﴾ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذْ الْأَعْلَىٰ فِي أَغْنَقِيهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَنْ مَا كُنْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ [غافر: ٦٩ - ٧٦].

لقد تضمنت هذه الآيات صورة معبرة عن واقع العذاب الذي ينتظر المتكبرين، وهو ليس مجرد عذاب، بل إنه مقرون بالمهانة والتحقير؛ فهم يسحبون كما تسحب الأنعام مقيدون بالسلاسل، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم. وبعد السحب والجر في العذاب، وبهذه المهانة ينتهي بهم المطاف إلى ماء



حار، وإلى نار يربطون فيها ويحبسون. وبينما هم في هذا العذاب المهيمن يوجه إليهم التبكيث والترذيل والإحراج والإعنات، ويطلب منهم أن يأتوا بشركائهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا، فيجيبون إجابة المخدوع الذي انكشفت له خدعته وهو يائس حسير، فقد ضلوا عنهم فلم يعودوا يعرفون لهم طريقاً، بل لم يكونوا يدعون إلا الأوهام والضلالات. ثم يكون مثواهم النار، وكفى بها إهانة وتحقيراً!



المبحث الخامس:

علاج الكبر

أنزل الله القرآن لحكم عظيمة، وفوائد جليلة، من أهمها كونه شفاء لما في الصدور. ولما كان الكبر من أعظم الأمراض القلبية، وأشد الأدواء النفسية فقد اهتم القرآن بعلاجه أيما اهتمام، وتدرج في هذا العلاج ليوافق مقتضى الحال؛ إذ ليس كل المتكبرين سواء. وفيما يلي عرض لبعض أوجه العلاج:

□ أولاً: العلاج بالموعظة:

من خصائص القرآن الكريم أنه كتاب موعظة وهداية: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. والنبي ﷺ كان مأموراً بالوعظ: ﴿وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء: ٦٣]. فالموعظة لها شأن عظيم في الإصلاح، إذ بها تطمئن القلوب وتعود إلى جادة الحق والصواب^(١).

ولهذا بدأ القرآن الكريم بعلاج الكبر بالوعظ والنصح والتذكير. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّكَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [٥١] لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا

(١) منهج القرآن في تربية الأجيال: ١٥٣، ١٥٤.



يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءَ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّبَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ [غافر: ٥٦ - ٥٩].

لقد قدمت هذه الآيات موعظة بليغة للمتكبرين، ذكرتهم فيها بوضعهم الحقيقي في هذا الكون الكبير، وكشفت لهم عن ضآلتهم بالنسبة لبعض ما يرونه من خلق الله تعالى، وهي مخلوقات يدركون ضخامتها بمجرد الرؤية، إنها السموات والأرض، تلك المخلوقات العظيمة التي لا يستطيع الإنسان أن يقيس نفسه بها، بل إنه يتصاغر أمامها ويتضاءل. ثم تنبه الآيات إلى أن فهم هذه الحقيقة لا يدركه إلا البصير الذي يرى ويعلم، ويعرف قدره وقيمته؛ فلا يتناول ولا يتكبر، بخلاف الأعمى الذي لا يرى ولا يعرف مكانه، ولا نسبته إلى ما حوله؛ فيخطئ في تقدير نفسه وتقدير ما يحيط به، فيقوده هذا إلى التخبط والحيرة. إن هذه الآيات تغري المتكبرين بالتفكير والتدبر ليصححوا مسارهم ويصوبوا منهجهم، وتحثهم على تذكر الآخرة والثقة من مجيئها وتصور مواقفهم فيها؛ فإن ذلك كفيل بإعادتهم إلى جادة الحق والصواب.

إن من أبلغ المواعظ التي يقدمها القرآن الكريم للمتكبرين تلك المتعلقة بتعريفهم بربهم جل وعلا، وتعريفهم بأنفسهم. ذلك أن الإنسان إذا عرف ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا به، وإذا عرف نفسه تواضع ولان للناس. قال تعالى: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ ﴿١٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَانَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ [عبس: ١٧ - ٢٢]. إن تدبر هذه الآيات وأمثالها، وفهم معانيها ومقاصدها لجدير بأن يوقد جذوة الإيمان في نفس المتكبر، ويزيل ما ران على قلبه مما يخالف الفطرة السليمة التي فطره الله عليها، ويعيده إلى الصراط المستقيم والمنهج القويم الذي ارتضاه الله لعباده.

□ ثانياً: العلاج بالقصة:

القصة من أهم الوسائل التربوية قديماً وحديثاً، لما لها من دور كبير وأثر ظاهر في إيصال المعاني المقصودة وتقريبها إلى أذهان المخاطبين وإقناعهم بها. وهو أمر يصعب تحقيقه عن طريق الألفاظ الخطابية والتوجيهات الإرشادية، فكم من معنى أريد إيصاله إلى العقول بالوعظ والإرشاد فما تيسر ذلك إلا بإيراد القصص وضرب الأمثال. ولعل هذا من حكم الإكثار من القصص والأمثال القرآنية. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]. وقال جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٧) [الزمر: ٢٧] (١).

والقصص القرآني المتعلق بأخبار المتكبرين كثير، وهو أسلوب آخر من أساليب القرآن الكريم في علاج الكبر والقضاء عليه. فمن ذلك ما ورد في سياق قصة قارون الذي قابل نعم الله عليه بالطغيان والتكبر، متجاهلاً نصيح الناصحين ووعظ الواعظين، بل ازداد تكبراً وتعالياً فأسند الفضل إلى نفسه، وإلى ما معه من العلم: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨]. فكان عاقبة أمره الهلاك والبوار. ثم جاء التعقيب على القصة مبيناً اتعاظ المعاصرين لقارون واعتبارهم بما وقع، وقد كانوا قبل يتمنون أن يصيروا مثله: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَذِّبُ اللَّهُ بِسُوءِ الظَّنِّ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَذِّبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٢) [القصص: ٨٢]. وفي هذا إغراء لكل من سمع هذه القصة من المتكبرين بالاعتبار حتى لا يصيبه ما أصاب قارون.

ومما يدل على استعمال القصة في علاج الكبر ما كان من فعل النبي ﷺ، وهو الرحيم بأمرته، الناصح لها. فقد ثبت عنه ﷺ قوله: «بينما

(١) انظر: منهج القرآن في تربية الأجيال: ١٧٣، مباحث في علوم القرآن: ٣٠٧.



رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة»^(١).
فبين ﷺ لأصحابه وأمته عاقبة هذا الرجل الذي أظهر ما في نفسه من الكبر
والخيلاء بجر إزاره، فكان عاقبته أن خسف الله به الأرض، وعامله بنقيض
قصده فحط من قدره، فهو يتجلجل نزولاً في الأرض إلى يوم القيامة. فهل
يعتبر المتكبرون بمصير أسلافهم، ويتعظون بما أصابهم.

□ ثالثاً: العلاج بالوعد والوعيد:

من أفضل أساليب الإصلاح: الترغيب والترهيب؛ ذلك أن النفوس
تميل إلى ما يحقق لها الخير، وتنفر مما يتوقع منه الشر. ولهذا نهج القرآن
الكريم هذا الأسلوب في علاج الكبر؛ فرغب المتكبر بالتوبة، ووعد
المغفرة وحسن الثواب. وخوفه من العقوبة وتوعده بها إن هو أصر على ما
هو عليه.

فمما ورد في مقام الترغيب قوله تعالى في حق من اقترف أعظم
الذنوب، وهو الشرك بالله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ
النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾
يُضْلَعُ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُخْلَدُ فِيهِ مُهْكَمًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ
وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ - ٧٠]. فإذا كان هذا الفضل يحصل للمشركين
وغيرهم من مرتكبي الكبائر إذا تابوا وأصلحوا؛ فإن ذلك يكون أيضاً لما
دون الشرك من الذنوب، ومنها الكبر. وفي هذا أعظم الترغيب وأفضل
الوعد للمتكبرين.

ومما ورد في مقام الترغيب ما جاء في سياق قصة شعيب عليه السلام
مع قومه وقد استكبروا عن قبول الحق والإذعان إليه، حيث حذرهم عليه

(١) أخرجه البخاري في الصحيح مع فتح الباري ١٠/٢٢٢.



السلام أن يصيبهم مثل ما أصاب الأقوام الذين تكبروا من قبلهم. قال تعالى: ﴿وَيَنْقُورُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ مِّنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [٨٩]. [هود: ٨٩]. ومن ذلك أيضاً ما ختم به قصص الأنبياء مع أقوامهم في سورة هود عليه السلام؛ وذلك أن الله تعالى ساق في هذه السورة أخبار الأنبياء مع أقوامهم، وأن هؤلاء الأقوام تكبروا على دين الله، وتمسكوا بضلالات آبائهم وأجدادهم؛ فكان هلاكهم ودمارهم. ثم ختم تعالى هذه القصص بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلَمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وفي هذا وعيد وتحذير لكفار مكة ومن بعدهم بأن الله تعالى لهم بالمرصاد.

□ رابعاً: العلاج بالعقوبة:

يستعصي حال كثير من المتكبرين عن العلاج، فلا يفيد معه الوعظ ولا إيراد القصص ولا الترغيب ولا التهيب، فيحتاج حينئذٍ إلى عقوبة موجعة تنزل به فتوقظه من رقدته، وتنبهه من غفلته. وتوجه العقوبة عادة إلى السبب الذي أفضى إلى الكبر، كالغنى أو القوة أو الملك .. أو غير ذلك.

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في قصة صاحب الجنتين^(١)، الذي كفر بنعمة الله، وتكبر على صاحبه الفقير، وظن أن ما أوتيته من الأموال والجنان لن يبيد أبداً، فنسي الله، وأنكر قيام الساعة. ولم يفد معه أسلوب الموعظة والتذكير بنعم الله عليه، وما يجب لها من الشكر. وهو الأسلوب الذي قام به صاحبه الفقير: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ فكان الأسلوب العلاجي الرادع، أسلوب العقوبة والتدمير، دُمِّر ثمره فلم يسلم منه شيء، وخوت جنته على عروشها مهشمة محطمة، وهو يقرب كفيه أسفاً وحزناً على ما بذل من جهد ومال. وكان لهذا الأسلوب أثره البين في نفس المتكبر؛ فقد ندم على إشراكه بالله تعالى، واعترف بوحدانيته

(١) انظر: سورة الكهف، الآيات: ٣٢ - ٤٣.



وربوبيته^(١).

إن أسلوب العلاج بالعقوبة النازلة بدافع الكبر وسببه هو آخر الأساليب العلاجية، وليس بعده إلا أن تنزل العقوبة بالمتكبر نفسه، جزاء له، وإراحة للناس من شره، وليكون هو في نفسه عظة وعبرة لغيره. فهذا فرعون وقومه تكبروا على دعوة الحق وعلى رسول رب العالمين، فعولجوا بالموعظة والقول اللين ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّئَلَّا يَعْلَمَ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٤]، ثم عولجوا بتذكيرهم بقصص من سبقهم من المكذبين الذين أهلكوا ﴿يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ [٣٠] مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [غافر: ٣٠، ٣١]، ثم عولجوا بالترغيب والترهيب ﴿يَقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ أَلْحَيَوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [٣٩] مَن عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَن عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنفَقَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٣٩، ٤٠]. ثم عولجوا أخيراً بالعقوبة الدنيوية في أموالهم وثمراتهم وإرسال الآفات عليهم ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ ۚ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]. لقد استكبروا مع استخدام جميع وسائل العلاج معهم؛ فاستحقوا بذلك العقوبة في أنفسهم؛ قطعاً لدابرهم ووعظاً لغيرهم.



(١) انظر: تفسير ابن كثير ٨٣/٣.

الخاتمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد: فقد تبين لي من خلال هذا البحث المختصر في موضوع الكبر ما يلي:

- ١ - أن الكبر في الإنسان خلق ذميم، دل على ذلك الكتاب والسنة.
- ٢ - أن الكبر أقسام، أعظمها التكبر على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ، ويلى ذلك التكبر على الناس.
- ٣ - أن الكبر لا ينشأ عن فراغ، بل له أسباب تقتضيه، ودواع تفرزه. من أهمها البعد عن منهج الله، والقوة والغنى، واعتقاد التفوق على الغير.
- ٤ - دفع الحق ورده أهم مظاهر الكبر، ويلى ذلك احتقار الناس والتعالي عليهم وظلمهم، والحرص على التميز عنهم.
- ٥ - يترتب على الكبر آثار وعقوبات دنيوية وأخروية، تورث المتكبر بعداً عن الله تعالى، وبعداً عن الناس.
- ٦ - لداء الكبر في القرآن الكريم علاجات متعددة ومتدرجة، تختلف باختلاف حال المتكبر، ودرجة تكبره.



قائمة المراجع

- إحياء علوم الدين، لأبي حامد محمد بن أحمد الغزالي، دار الدعوة، إستانبول، ١٤٠٦هـ.
- الإصابة في تمييز الصحابة، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٢٨هـ.
- إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، للحسين بن محمد الدامغاني، تحقيق: عبدالعزيز سيد الأهل، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، تحقيق: محمد علي النجار، المكتبة العلمية، بيروت.
- تأملات في سورة الإسراء، د. حسن باجودة، دار الاعتصام.
- تربية النفس الإنسانية في ظل القرآن الكريم، د. أحمد محمد المقري، دار حافظ للنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ.
- تفسير ابن كثير، المسمى: تفسير القرآن العظيم، لعماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٣هـ.
- تفسير سورة الإسراء، د. محمد البهي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٦هـ.
- تفسير القرطبي، المسمى: الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦٩هـ.
- حديث رمضان، للشيخ محمد مصطفى المراغي، دار الهلال بمصر.
- سنن الترمذي، وهو الجامع الصحيح، لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٣٨٢هـ.
- شرح النووي لصحيح مسلم، للإمام يحيى بن شرف النووي، المطبعة المصرية بالأزهر، الطبعة الأولى، ١٣٤٧هـ.

- صحيح البخاري، لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري، مطابع الشعب، ١٣٧٨هـ.
- صحيح البخاري مع فتح الباري، تقدم.
- صحيح مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
- صحيح مسلم مع شرح النووي، تقدم.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لشهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المطبعة الكبرى الميرية ببولاق مصر، ١٣٠١هـ.
- فتح الرحمن في تفسير سورتي الفاتحة ولقمان، د. علي حسن العريض، دار الإصلاح، الدمام.
- قبسات قرآنية، لعبد المؤمن محمد النعمان، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.
- لسان العرب، لأبي الفضل محمد بن مكرم المعروف بابن منظور، علق عليه: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ.
- مباحث في التفسير الموضوعي، د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- مباحث في علوم القرآن، للشيخ مناع القطان، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، للإمام محمد بن أبي بكر بن أيوب، المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- مسند الإمام أحمد بن حنبل، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت.
- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سعيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- مكارم الأخلاق، لأبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، تحقيق: فاروق حمادة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ.



- مكارم الأخلاق، لأبي نصر بن أمين الدين الطبرسي، مطبعة الحاج عبدالسلام شقرون بمصر.
- من الآداب والأخلاق الإسلامية، د. عبدالله عبدالرحيم العبادي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت.
- من معاني القرآن، عبدالرحيم فوده، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة.
- منهج القرآن في تربية الأجيال، د. عبدالرحمن عميرة، شركة مكنتات عكاظ للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- موسوعة أخلاق القرآن، د. أحمد الشرباصي، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ.
- نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، لجمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، تحقيق: محمد الراضي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ.



